التعريف والنقد

« عاشها كلّها »

في رأي ناقدٍ من نقّاد الأدب في فرنسة أن الناس قد ملّوا مطالعة الروايات التي يخترع أصحابهـــا الأشخاص والحوادث اختراعاً ، ومالوا إلى المذكّرات التي يواجه كتّابها جمهور القرّاء مواجهة ، فيفضون إليهم بدخائلهم وينفضون جملة حياتهم بما تشتمل عليه من محاسن ومساوئ ، إلاّ أن هذا الناقد اشترط على هذا النوع من الأدب أن يكون صادقاً قبل كل شيء .

لقد عرف الدكتور كاظم الداغستاني هذا الشرط وأشار إليه في فاتحة كتابه الذي سمّاه : « عاشها كلّها » فواجه القرّاء مواجهة صادقة ، فقد روى لنا في سبعة فصول من مذكراته أشياء كثيرة من حياته وحياة مجتمعنا في دمشق ، ولا سيّما لهو هذا المجتمع ، ووصف هذا اللهو وصفاً غلبت عليه الدقّة وقوّة الانتباه ، وإذا كان المجال لا يتّسع الإفاضة في الكلام على هذه الفصول بأجمعها فلا أقلّ من التنبيه في الفصل الأول على البيئة التي عاش فيها المؤلّف والبيت الذي درج منه ، نظراً إلى الصلة القويّة بين هذه البيئة وبين مزاجه وأسلوبه المرح .

تقلّب الدكتور كاظم الداغستاني في أعطاف التدلّل من حداثة سنّه ، لقد فتح عينيه على الانشراح والانبساط ، فتح العينين على الحسن والجمال ، والأذنين على الموسيقى ، والقلب على حبّ الحياة ، فكان لهذا كلّه أثر في حياته من نعومة صباه إلى اليوم الذي نيّف فيه على السبعين ، وقد تيسّر لي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن أعرف مزاج الدكتور كاظم الداغستاني من خمسين سنة ، فقد كانت أواصر الصداقة تؤلّف بيني وبين طائفة من الإخوان في جملتهم الدكتور كاظم ، فما عرفناه إلاّ مرحاً كلّ المرح ، ما عرفناه إلاّ ضاحكاً ، مازحاً ، مفكّهاً ، لم ينظر إلى الحياة إلاّ من محاسن وجوهها ، كانت الحياة تضحك له ويضحك لها ، كان يمزح فيتقبّل إخوانه مزحه لأنّه بريء ، وكان يضحك فيشيع فيهم نعمة الضحك ، وكان يفكّههم بملح الكلام فيأنسون بنوادره ، ولعلّ البيئة التي نشأ فيها في غضاضة عوده هي التي قوّت فيه على نحو ما تقدّمت الإشارة إليه هذا المزاج المرح .

لقد انعكس مزاجه كلّه على خواطره التي بثّها في كتابه ، فهو من الكتّاب الذين يدخلون على قلوب القرّاء بموضوعاتهم الفرحة البهجة والسرور ، على خلاف الكتّاب الذين ينظرون إلى الحياة من ظلمات وجوهها فيدخلون بموضوعاتهم الكئيبة ظلمات الكآبة على القلوب ، ولو لم يدرس الدكتور كاظم الداغستاني الفلسفة في باريز لكان فيلسوفاً بمزاجه سواء أضحكت له الحياة أم عبست ، وسواء أضاقت هذه الحياة أم اتسعت .

وإذا كنت قد نبّهت على مزاج الدكتور كاظم الداغستاني وعلى ما انطوى عليه هذا المزاج من مرح وسرور ، فما فعلت ما فعلت إلاّ لشدّة الشبه بين حياته وبين أسلوبه ، بين مرح هذه الحياة ومرح هذا الأسلوب ، فما أشدّ حاجتنا إلى الموضوعات الضاحكة ، الفرحة في وقتٍ لا نشعر فيه إلاّ بالكآبة ولا نحسّ فيه إلاّ بالانقباض .

لقد وصف الدكتور كاظم الداغستاني نواحي كثيرة من حياة المجتمع في دمشق ، لقد أثبت حقاً أنه ابن دمشق ، فما غفل عن تصوير بعض الحياة في البيوت القديمة وفي جملتها بيته في الصالحية ، ومن صور هذه الحياة شغف السيّدات بالطرب ، لم يغفل عن تصوير الحياة في الكتاتيب والحارات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما اصطلح عليه شباب هذه الحارات من عاداتٍ وتقاليد ، ولكنّ الطرافة التي وجدتها في وصف الحمام واقتنائه قد غلبت على كل شيء ، كان الناس في القديم يعنون بتربية الحمام في بيوتهم وبمطايرته وهو ما يسمّونه باللغة العامّة : كشّ الحمام ، واللذّة التي يجدونها في هذه التربية وهذه المطايرة لا تعدلها لذّة ، والرجل الذي يُعنى بهذا كلّه كانوا يسمّونه : الحمياتي ، والظاهر أن الدكتور كاظم الداغستاني كان « حمياتي » من الطراز الأول ، فالوصف الذي وصفه لأنواع كثيرة من الحمام ، ولعادات « الحمياتية » وتقاليدهم لا يقدر عليه إلاّ كلّ « حمياتي » بارع ، ولا بأس بأن تفوته الإشارة إلى أنواع ثانية من الحمام غير الأنواع التي وصفها ، مثل الإشارة إلى الشيخ شرلي بأبيض والشيخ شرلي بأسود وغيرهما ، وما عليّ إذا اعترفت بأني قد مارست في القديم من تربية الحمام ومطايرته ما مارسه ولكني لم أبلغ من العلم ما بلغه في وصف : الطير الأبلق والطـــير الماوردي والأبرش والبربريسي والعرجاني والطيور المرقّعة والمنمّرة وغير ذلك مما لا يعرفه إلاّ ابن الصنعة .

ولا يخطرن ببال أحد أن مثل هذا الوصف ، أي وصف الحياة في مجتمعنا القديم ، حياة البيوت والكتاتيب والحارات واللهو إنما هو من باب العبث ، فإن في هذا الوصف إحياء لما كانت عليه دمشق من خمسين سنة أو أكثر ممّا أهمله كثير من الكتّاب المتقدمين حتى فاتنا بهذا الإهمال تصوير معارض كثيرة من حياتنا الاجتماعية وإذا كان الشيوخ لم تفتهم تلك الصور فإن شباب هذا العصر يستطيعون أن يروا طائفة من صور المجتمع في كتاب : « عاشها كلّها » ففي هذا الكتاب وصف دقيق قد ينتفع به التاريخ في المستقبل .

وكما برع الدكتور كاظم في وصف الحمام وأنواعه وتربيته فقد برع في وصف اللهو في دمشق ، مثل لهو « كره كوز » والمسارح والمرابع وغيرها ، فلا تكاد تفوته حركة من الحركات ولا يكاد يفوته معنى من معاني النظرات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في تلك المسارح والمرابع ، ولا يقدر على مثل هذا الوصف إلاّ من راقب أماكن هذا اللهو مراقبة دقيقة ، فلم يخف عليه شيء من أمور العشّاق والمغنّيات ، ولا سيّما حركات المغنّيات اللواتي يجهدن في إرضاء كل عاشق بحركة من الحركات أو بنظرة من النظرات ، لم يخف عليه شيء من وصف الملابس والقامات والأحاديث والرقص وغير ذلك . فقد رزق عيناً ثاقبة لا تفوتها حركة من الحركات وذهناً يقظاً لا يفوته شيء من أسرار الوجوه في تلك الملاهي وفطنة شديدة إلى كل ما يجري فيها من هزل وجدّ ، من أوضاع مضحكة وأوضاع مذلّة ، من لهو الشباب المجنون ولهو الشيوخ المضحك .

وإني لأقطع الكلام دون الخوض في خصائص البقيّة من فصول : عانيها كلّها ، ولا سيّما ذكريات باريز ، فإني أرى أن الإلماح الى ما ذكرت من قدرة الدكتور كاظم الداغستاني على وصف ما يتعلّق بمرح الحياة ولهوها وعلى التدقيق في هذا الوصف إنما فيه المتعة ، فليمتّع القارئ الكريم خاطره من روح المؤلف ، من مرحه وبهجته ، من هذا المرح الذي لم ينحرف عن ظلّ الأدب ، ولم يشذّ عن الأخلاق في شيء .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net